المكتبة الاهلية في بيروت

سيف الدولة

رواية تاريخية غرامية

جرت وقائعها في عهد الامير سيف الدولة بن حمدان
صاحب حلب

تأليف

الكاتب المستشرق الافرنسي المعروف
اندره دابقس

تعريب

اسكندر رياشي : صاحب جريدة « الصحافي التائه »

مطبعة المصباح * بيروت ١٣٤٨ ﻫ ١٩٣٠ م

لم يحمل سيد الرمح مثله ، ولم يخلق الله
كالبراق . اجمل خيول نجد
« اندره دايفنس »

هذه سيرة ابي الحسن سيف الدولة ممدوح المتنبي ، جاء بها مستشرق افرنسي ، فكان اميناً على الحقيقة التاريخية، والاسماء العربية لابناء المضارب ، فعربت كتابه حرفاً حرفاً ، وكنت اميناً في التعريب ، كما كان المؤلف اميناً في التاريخ ، وأدهشني غرام سيف ببلتذا ، وغرام بلتذا بسيف الدولة . فوضعت في تعريب مشاهد ذاك الغرام الشعري الشديد ، ما وضعه المؤلف من عبارات الاعجاب والوصف المستكمل

فاذا اردت ايها الصديق ان تتعرف الى مجد عربي خالد ، والى امير فاق بسطوته وظرفه وادبه كل امير ، والى مليكة فاقت بغرامها وجمالها ونبالتها كل النساء ، فاقرأ حكاية سيف الدولة امير حلب وملك سوريا

« المعرب »

من هو سيف الدولة ؟

ولد سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، وتوفي سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م

هو ابو الحسن علي بن ابي الهيجاء الملقب بسيف الدولة ، مؤسس دولة بني حمدان ، التي دامت في الموصل ، ونصيبين ، وانطاكية ، وديار بكر ، وحلب ، ودمشق من سنة ٢٩٣ هـ ـ ٩٠٥ م الى سنة ٤٠٢ هـ ـ ١٠١١ م

كان فارساً مغواراً ، وقائداً محنكاً ، وشاعراً بليغاً ، ونقاداً محققاً ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر

وقد اشتهر بغزواته الكثيرة ، واعماله الحربية العظيمة ، وابلاءه في الاعداء وخصوصاً الروم ، حتى دوّن له التاريخ وقائع مجيدة وحوادث هائلة ، لايزول ذكرها على الدهر ، حتى انهم جمعوا من الغبار الذي كان يلصق بثيابه في حروبه لبنة

بقدر الكف ، واوصى ان يوضع خده عليها في لحده ، فنفذت وصيته ، ولله در المتنبي الشاعر المشهور حيث قال فيه :

ان كان قد ملك القلوب فانه
ملك الزمان بأرضه وسمائهِ

الشمسُ من حسادهِ والنصرُ من
قرنائه ، والسيف من اسمائه

أين الثلاثة من ثلاث خلاله :
من حسنه وإبائــه وقضائه

مضت الدهور وما اتينَ بمثله
ولقد أتى ، فعجزن عن نظرائه



١

صبوة ابي الحسن

كلب راكض خير من اسد رابض
(مثل عربي)

ما من شيء في الكون يا اميري الجميل يفتن النساء كحكايات الحب والحرب ، وقد ذكرت الان حكاية عجيبة ساحرة تذهب عنك الضجر ، فاسمع حكاية حياة سيف الدولة الذي كان اميراً على حلب ، التي لا شبيه لها ؛ فلم يعش رجل بنبالته بين الاسلام ودعاة النبي « صلى الله عليه وسلم »

وُلد في الموصل حيث كان والده الملقب بالخليفة المقتدر حاكما فدعي ابو الحسن

وهو متحدر من اسرة حمدان ، وهو وحده في مجده استطاع ان يزيد امجاد اجداده العظام ، وقد حيته عند ولادته البشائر السعيدة التي تلقاها الناس بفرح وسرور ، ويقولون انه عندما وضعته امه ورأى النور تغنت العصافير في الدوحة اغاني « جديدة » وكان اول صوت سمعته اذناه زقزقة البلابل

وعندما ابتدأ بالمشي عرف الناس انه سيكون الاكثر جمالا بين ابناء حمدان ، وكان وجهه يبتسم كما يبتسم الياسمين

في الربيع وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلأ قلب والدته انتعاشاً وكانت ابتسامته تتفتح على الناس كما تتفتح براعيم الازهار عند الصباح

وكان ذكاؤه حاداً ومستغرباً ، لهذا وضعه والده بين ايدي حكماء الموصل العظماء ، الذين لقنوه العلوم والشعر ، وكان يريد ان يجعله عالماً يفوق جميع علماء بلاطه ، انما الله وحده يعرف ما يعرف . وماقدر يكون !!

واخذ ابو الحسن يخجل بارتجالياته — وهو لايزال في الحداثة — اكثر الشعراء فناً ورقة ، ومع انه كان متعشقاً لنفحات الشعر فانه كان ايضاً يرى نفسه مجتذباً نحو العاب اكثر رجولية من هذه

ففي الصيد والمصارعة ولعب الرماح كان دوماً الاول ينتصر على جميع الذين يجارونه وهم من عمره

ويحب الخيول المطهمة التي يشبه ذيلها الذي ذهبته الشموس دروعاً لماعة

ويلذ له تربية الصقر والباز كما يلذ للحبيبة وصال حبيبها

وعندما يطارد في الرمال الفريسة التي تجري امامه ضارباً بفخذيه القويتين متن مركوبه السريع يشعر بنشوة تطير به في الفضاء فينسى العالم وما فيه

وكم كان مرآه جميلا عند المساء وهو راجع على رأسه

رجاله الى المدينة وقد ارتدى اجمل واغنى واثمن الملابس وتدلت الطيور والغزلان التي اصطادها على سروج الخيول

فكانت عندئذ تقف الفتيات الاكثر نذوراً على اعتاب بيوتهن ويرفعن عيونهن اليه فتزدد خدودهن الزنبقية دماً من حمرة الخجل واللذة

فانه كان يزرع في طريقه عطور الشهوات وخيالات الاحلام

وقد عرف الخليفة المقتدر ان ولده خلق للحب وللحرب فكان سعيداً لان له هذا الولد

انما عند المساء بعد ان يسدل الليل ستائره المنعشة على العالمين كان ابو الحسن يذهب وحده الى الحدائق الغناء فيهيم بين الاريج الكثيف المتصاعد من الزهور الناعسة بالقرب من البحيرات حيث تتغنى « الفوارات » والعيون

وهنالك كان ينصت لانشودة الارض الهادئة وينظم الشعر

ولكن الفجر كان يجده دوماً على صهوة جواده يجري على رأس رجاله مالئاً الفضاء من هتافاته قافزاً في الهواء النقي المنعش وتائها في صبوته وقوته وغنياً في جماله ، ونبيلا في هيئته وفتاناً في ملاحة وجهه وجسمه حتى انه كان يخيل لتجار القوافل في الصحراء عند رؤيته انه الملاك جبريل يسير

على رأس طغمة من ملائكته

وحصل غزو في ذلك الزمن على بعض القبائل المعادية ، التي كانت تعيث على طرقات الصحراء فساداً وتجبي فدية عن القوافل دون ان تحترم حجاج بيت الله الحرام

ولما عرف ابو الحسن بجلية الامر ذهب لابيه وقال له :

ـ يامولاي « كلب يركض خير من اسد رابض » فاني اريد الذهاب للحرب فقد اختنقت في المدينة وانا احب الصحراء وان ابيت الليالي في ظلال الخيام ، واسكر من ضجيج الرماح وقرقعة نعال الخيول ، وانا عطشان للهواء الطلق وللمعارك الدامية .

فنظر الحاكم الشيخ الى ولده باعتزاز ولكن قليلًا من الكآبة لامست صوته عندما قال له :

ـ اذهب ياولدي وليحفظك الرحمن واحرص جيداً ان تكذب على دم اجدادك ، فسارسلك غداً لاخيك وهو يقودك للغزو

فوضع ابو الحسن ركبته على الارض وقبل ثوب والده

واعترته موجة من الفرح كادت تطير به ، وأحس كأن سوطاً دامياً يجرح صدره وعندما وقف ظن ان العالم ملك له ودخلت افراح فردوس المؤمنين باجمعها الى قلبه

فقضى يومه بطوله قافزاً ضاحكاً راكضاً كغزال طليق

في فضاء الله

وذهب لاصدقائه فاعلمهم بامره السامي ، واخبر به كل من رآه في سبيله من العبيد للبنات لتجار الاسواق لضباط القصر ، وقد كان فرحه عظيما حتى انه عند المساء نسي « صليحة» الجميلة التي احبها بين النساء والتي بكت طويلا عندما عرفت انه مسافر في الغد

وقد تفتحت يومذاك امامه ابواب حياته الحقيقية ، فقد اوشك ان يسير على طريق المجد

وقاده ولده في اليوم الثاني الى اخيه ناصر الذي كان يستعد للقيام بغزو جديد ، وكان هذا يفوق سيفاً بخمس عشرة سنة من العمر ، وقد ذاعت شهرة بطولته بين القبائل وخافه الناس .

ولما اعلمه والده بجلية أمر اخيه ابي الحسن هز رأسه استخفافاً وقال :

– هل تعلم يا ابا الحسن اننا سنخاطر بالحياة ونجتاز الصحراء ذات الرمال المتحركة ؟ هل تعرف ان من الواجب علينا السهر ليلا ونهاراً خوفاً من الاعداء ومن الوحوش ، واننا سنلقي عذاب العطش ونصوم اكثر من صوم رمضان وربما متنا جوعاً ؟ وهل تعرف ان اعداءنا هم فوارس يرعبون ، وابطال محتالون يخرجون فجأة من الارض فينصبون

الاشراك ويعذبون الاسرى ؟

فاجاب ابو الحسن ـ اعرف كل ذلك وانا اعيش منذ زمن طويل بعيداً عن المعارك ٬ اخي ناصر انا تبع لك وطائع لارادتك كاحد الرعايا البسطاء وانا حاذق بضرب الرماح ٬ ولا يرعبني زئير الاسود

فقال ناصر ـ ليكن ما تريد يااخي ٬ وليتم المقدر عليك

فاحنى ابو الحسن رأسه امام الامير ناصر وذهب الى دار الاسلحة حيث لبس قميصاً من الفولاذ مغطاة من الخارج بقماش ناعم من الحرير وتمنطق بخنجر يلمع كالبرق وبسيف محدودب صقيل ، وتقبع بخوذة وضاحة وارتدى برنساً ابيض كثلج الجبل

وقاده والده بعد ذلك الى اسطبلاته فانتقى حصاناً هو اجمل خيول نجد مسرجاً بالحرير والفضة ٬ فركبه وطاف المدينة من اولها لآخرها ذاهباً للسلام على والدته التي استقبلته بافتخار وحزن ٬ وقبلته طويلاً وهي تمسك عبراتها ومن بعد ذلك وضعته تحت حماية الله القدير

ولكن لا ترتجفي ايتها الام الحزينة ولا تخافي فان ولدك ابا الحسن لا يطير من بين ذراعيك الا ليضمه المجد بين ذراعيه المعطرين

وفي صباح ذات يوم ٬عند ابتسامة الصباح ٬ وتحت رعاية

اخيه ناصر مشى ابو الحسن الى الصحراء يحيط به رهط من كبار القواد ، على محياهم سمات الشرف والنبل والبطولة

ووقف اهالي الموصل على طريق الامير وهو يسير في طليعة رجاله يتأملون بصبوته وجماله الفتان ويطلبون له السعادة والحياة الطويلة

ولم يكذب ابو الحسن على دم اجداده ، فقد كان في المعارك الاولى التي اثارها ما يجب ان يكون ، شجاعاً حتى الجنون وكريماً حتى منتهى الكرم

احاط الاعداء فسقى رمال الصحراء من دمائهم ، ولم تعرف يده التعب وهي حاملة سيفه الصقيل اللماع

وعندما يأتي الليل ، لم يكن على وجه البسيطة وامام نجوم السماء رجل يسهر على جنده ويحرسهم ويرقب اعدائهم مثل ابي الحسن

فابتدع الحيل للحرب ، وفي كل يوم كان يستيقظ في وسط الرجال اشد بأساً واكثر حذاقة من الامس ، وكان اخوه ناصر يشعر ان قلبه يمتلئ فرحاً واعتزازاً لمرأى اخيه شجاعاً وسيداً في فن الحروب — مع حداثة سنه

وعندما رجع سيف الى الموصل عرف الناس ان الله اعطى بطلا جديداً للاسلام ، لا يقل بأساً وقوة عن ابطاله السالفين . وابتدأ ابو الحسن منذ ذلك اليوم يزداد منعة وفخراً

وانتصارات ، فاصبح اسمه رعباً وهولا للنهابين وقطاع السبل في الصحراء

ولم تجر موقعة كبيرة ولم يقع غزو معروف الا وكان الامير سيف على رأسهما وهو عربون الانتصار

ولم يكن في شؤون الحب والغرام اقل نشاطاً وهمة مما هو في الحرب والصدام ، وكثيراً ما كانت الاسيرات اللواتي كان يكسبهن بغزواته يخرجن من بين ذراعيه ناسيات الاسر والاستعباد وسعيدات فرحات

وكان كذلك بعد المعارك يرتاح لقصص الشعراء ومستظرفات الادباء

وكان بين موقعتين عندما تقف قرقعة السيوف والرماح يتمدد بكل رخاء على فراش من الارجوان الناعم فيسكر من نغمات الاعواد واغاني الراقصات الفاتنات ، وترنيمات القصائد والاناشيد

وهكذا كان ابو الحسن بن حمدان يزهو يوماً عن آخر في فنون الحرب والغرام والشعر

٢

حلب الشهباء

قال لي المجد (لا تستطيع ان تتملكني الا اذا امتلكت العالم) « قول اعرابي »

وحملت الافواه صيت ابا الحسن من مكان الى مكان بعيداً جداً عن الموصل ، وقد اتصل بالخليفة خبر اعماله الباسلة بقيادة اخيه ناصر فطلبه هذا الي بلاطه ، فسار البطل الفتى صبيحة ذات يوم جميل الى بغداد الحرة ذات القبب الوردية فاستقبله فيها اهل البلاط بشرف كبير واقام له الامراء الافراح والاعياد ولم يكن ابو الحسن قد رأى قبل ذلك عظمة كمثل عظمة بغداد من قصور شاهقة مزخرفة وميادين شاسعة مزركشة وقاعات من الارجوان الاحمر والمرمر بلون الثلج فرشت في ارضها السجادات الفاخرة وازدانت نوافذها وموائدها بالآنية الذهبية والفضية المحلاة باللآلىء والجواهر واستضاءت سقوفها بالانوار الساطعة العديدة كأنها الوف والوف النجوم ونزلت على ابوابها الستائر التي رسم عليها المصورون حكايات الحروب واعمال البطولة ومشاهد الحب والغرام

وقد انشدت في اواسطها النوافير اغاني المياه السامية وتقطرت منها الحبات كأنها عقود لؤلؤية جاعلة حولها محيطاً

رطبا سكوتا يدعو للشعر والوصال

فاعجب ابو الحسن بما رأى واقسم وهو في وسط كل هذه العجائب يتأمل بها انه سيملك القوة والثروة ليعيش كما يعيش الخليفة في بغداد وبقصر فخم كقصره وفي اعياد عظيمة مستديمة ملأى من الغرائب ترقص فيها عاريات اجمل بنات حواء من عصافير الجنة وحورياتها

واعطاه الخليفة قيادة احد جيوشه ، فخافه الناس وعاش في قصر امير المؤمنين معززا مكرما يطيعه الناس عند اقل اشارة منه واهدى اليه رجال البلاط فرقة من عبيد افريقيا تخدمه وتقدم له في كؤوس البلور الصافي المشروبات النادرة وعلى صحون من الذهب الخالص الاثمار المكللة بالثلج

وجاءوه بنساء فتيات جميلات وفاتنات ليغسلن جسمه بالند والاقحوان ، وليلبسنه الحرائر الناعمة التي كانت القوافل تأتي بها من الشام وبعلبك والبصرة ، وليدلكن منكبيه وفخذيه وردفيه وظهره بايديهن البلورية اللؤلوية ذات الاصابع المخضبة بالحناء ؛ وليرقصن امامه عاريات راقصات تهتز بها اجسادهن الناصعة البياض كما يهتز العصفور بلله القطر

ومع ذلك فانه لم يكن يسترسل كثيراً للملذات عندما يشعر ان هنالك خطراً يهدد المملكة فكان يقوم كالمجنون فيسرع على رأس جيشه الى الاعداء فيذبحهم ويجعلهم طعمة

لوحوش الفلاة ويرجع حاملا اعلام النصر كما ترجع الاشجار الى ازدهارها في فصل الازهار ..

ففي كل يوم كان يزداد حب الرعية له ، لجمـاله الفتان ولبطولاته النادرة ولذكائه المفرط

ومع ذلك فانه كان يتاسف - وهو في كل هذه العظمة على فراق اخيه ناصر الذي كان يجله ويحترمه

ونظر الخليفة الى اعمال ابي الحسن العظيمة فجعله اميراً على واسط ، ومن ثم بعد اعمال اعظم جعلته محترماً عند امير المؤمنين عينه حاكماً على ديار بكر حيث اظهر حكمة ادارية عالية وحيث حارب الاعجام فتغلب عليهم وجعلهم يخشون سطوته

وكان يسير من ظفر الى ظفر يحيط برأسه اكليل من شعاع الشمس ، واجدا اينما حل صداقات امينة واعداء اشداء للتغلب عليهم

واخيراً جعله الخليفة حاكما على (ميافارقين) حيث ينام اجداده العظام في مدافنهم بكل جلال وابهة ، وكان يومئذ قد ناهز السابعة والعشرين من عمره ، وقد بلغ من الشهرة شأواً بعيداً فتحدث به الركبان واحترمه الناس اكثر من احترامهم لمشايخ الدين والعلم

ومع كل ما وصل اليه من العظمة والجاه فانـه كان يحلم ايضاً باكثر واسمي من ذلك ، فهو يحب الاستقلال والمعيشة

الحرة الطليقة في وسط الصحراء حيث لم يكن له خصوم الا الاسود ، وكثيرا ما كان يشعر وهو في قصره بميافارقين بثقل سيطرة الخليفة عليه ، فكان يتمنى ان يكون عنده مملكة هو وحده اميرها

مملكة يفتتحها بسيفه المنتصر لانه كان من الذين لا يستطيع احد في العالم مهما كان عظيما ان يتسيطر عليه

وقد ضجر من معيشة البلاط الملكية والاميرية وكان يتمنى ان يحارب بذاته دون ان يكون له غير ارادته الخاصة جاعلا لبلاده ممتلكات جديدة وذلك تحت سنابك خيله وبقوة ساعده

وهو يقول «لا تزال اراض واسعة في العالم يلزم امتلاكها »

وكان محاطاً بعدد عديد من الفوارس الشجعان ، الذين لا يقفون عند شيء في سبيل تحقيق اماني سيدهم ، الذي كان يقول بنفسه دائما « لماذا لا اسير عند الصباح العذب وانا عطشان للاعمال العظيمة فامتلك البرين »

وكان يردد بكل تؤدة وحب وهو بالقرب من الينابيع العذبة قول الشاعر القائل :

« جبت العالم على حصاني المطهم ، زارعا في كل مكان الرعب والخوف ، وقطعت الانهر والجبال للقتل والكسب واللذة »

وكان هذا الاسد قد ضجر من معيشة التمدد على الاطالس بين عشرات الجواري الفاتنات ، ولم يكن ينتظر للوثوب

غير الفرصة المناسبة فيقوم الى الصحراء مفتشاً عن فرسته مسمعاً السماء زئير غضبه

وكانت خيوله السوداء كالليل تضرب بحوافرها ارض مرابطها فتحفرها وقد صدأت اسلحته في متونها

ـ قم الى الحرب ياامير الفتيان وشيخ شبابهم ، قم الى النصر ، الا تشعر ان الارض تضيق بك

ونادى يوماً فوارسه وقال لهم :

« الم تتعبوا بعد من الاعياد والنساء ؟ ؟ »

انتم خلقتم للمعارك بين الرمال الارجوانية ، ولافتتاح البلدان الجديدة ، لا للتمدد تحت اقدام الجميلات ؟

« الا تأسفون وانتم سكارى من عطر النساء على فقدانكم نور الشمس المحرقة ، وانتم اولاد البادية التائهون في بلاد الله ،

« جميع القبب واطئة تحت رؤوسكم ما عدا قبة السماء ، وجميع السجادات متراخية على اقدامكم ماعدا رمال الصحراء

انتم خلقتم لتعيشوا بين عواصف الغبار حيثما يكون كل منكم جسماً واحداً مع حصانه

فتذكروا نشوة الحرب والابتسامة الصفراء على ثغر العدو المضرج بدمائه ، ورائحة دماء الكفار العذبة للشم

تذكروا معاركنا في الصحراء والجبال وجنون خيولنا في

للامصار .

نحن ننام اليوم ايها الرفاق بين العطور والازهار

ولكن من يريد ان يتبعني لامتلاك ممالك العالم فليأت سنمشي ونجعل الارض ترتجف تحت سنابك خيولنا ، سنسير في نور الشمس فنمتلك الدساكر والحاضرة والمدن والممالك ونسبي النساء الاكثر جمالا من حوريات الجنان ، فنحملهن وراء ظهورنا على الخيول ونجعل قبلاتنا على ثغورهن اشهى من الدم الذي نسفكه لامتلاكهن

فلنعش احراراً تحت الخيمة التي تحركها الرياح ، من ان نعيش مستعبدين في القصور الشاهقة الفخمة

انني ساجعلكم اقوى من السحرة
اتبعوني واتركوا لغيركم المحافظة على القصور
تعالوا لنمتلك الشمس والقمر »

فاستقبل السامعون كلام اميرهم الجميل بحماس لا مزيد له واعتلى الهتاف وبرقت نصول السيوف فوق الرؤوس — لبيك لبيك — قالوا للامير فنحن طوع يديك

وراحوا بعد ذلك يجوبون المدينة التي ضجت لمرآهم ولقرقعة اسلحتهم وصهيل خيولهم ، حاملين للاهلين من فم الى فم البشرى العظيمة وداعين الشجعان الى الانضمام اليهم لامتلاك الشمس والقمر

فكنت تراهم العين براقة ، والقدم ثابتة والرأس عزيزاً شامخاً ، يقفزون من مكان الى مكان كأنهم من سكان الجن تظهر على ملامحهم دلائل الظفر والانتصار كأنهم حققوا الحلم وامتلكوا ممالك الارض التي وعدهم بها اميرهم الفتان

واصبحوا بعد ثلاثة أيام الوفاً والوفاً ، وباجمعهم من المفتشين على الحادثات الراغبين بها . صيادي الامل المتعلقين باذياله ، وقد كان فرحهم عظيما بالذهاب للحرب لاكتساح المدن والدساكر تحت قيادة اميرهم الجميل الذي قادهم مراراً قبل ذلك للنصر والكسب

وكان ابو الحسن في خلال ذلك يفكر ، وهو عارف اية حياة وراحة سيترك كيما يتوغل في المجهول وهو عارف ايضاً انه يرمي بنفسه في بحر الصدفة ولكن فرحه عندما يفكر بالكسب والغنيمة ، والمسير حراً طليقاً في الصحراء وبالليالي التي سيقضيها مفترشاً الغبراء وملتحفاً السماء ونجومها كان يقتل فيه التفكير ويجعله يطير بفكره الى المسافات الشاسعة ليمتلكها

انما كان يتساءل اية بلاد يغزو واي قطر يكتسح ؟؟

انما العجم والجزيرة لم يكونا يستفزان اطماعه ، بل كان يتمنى ان ينزل الى الساحل ويتوغل في سورية الغنية حيث المدن المزدهرة ، حمص والشام وحلب التي كانت تبان لناظريه كامرأة فتانة تحمل بين ذراعيها الغرام واللآلى .

كامرأة فتانة تحمل بين ذراعيها الغرام واللآلي·

هي سوريا التي استدعته ، سوريا ذات السهل الفسيح الشاسع التي تحميها اجبال لبنان، الجاعلة فكرة امتلاكها مستحيلة

وكانت سوريا يومذاك بين يدي اخشيد مصر الذى كان قد امتلكها ناكراً سلطة الخليفة عليها

وقال الامير سيف بنفسه انه اذا امتلك سوريا وجعلها مملكة مستقلة وهي اغنى الممالك ، ارجع هذه القطعة المفصولة عن بلاد الاسلام ادبياً الى الخليفة امير المؤمنين

وكان في ذلك ايضاً المخاطرة بالموت ، فقد ينكسر الامير الفتان في الموقعة الاولى

ولكنه لم يفكر دقيقة بذلك بل ان هاجساً واحداً كان لا يفارقه وهو السير الى الحرب وانقاذ النفس من خمول القصور وعبادة الجميلات·

ومضى اسبوع كامل على ذلك وتهيأ كل شيء للسير ، فالوف من المحاربين والخيول والجمال والخيم والبغال والاسلحة كانت قد تجمعت في ميافارقين وهي تنتظر يوم الطعان

والنساء الجميلات الصبيات ذوات الاصوات الشجية والعيون الخلابة والذوائب الجميلة ، تجمعن ايضاً ، واستعدين لمرافقة الامير

فانهن كيما يتبعن الامير الفتان لم يفكرن لا بالتعب ولا

بالخطر ولا بحرّ الصحراء ، بل سرن كما ارحت لهن قلوبهن قلوبهن الرقيقة التي لم تكن تعرف غير الشعر والحب

وذات ليلة طلب الامير قواده وامرهيم ان يكونوا مع الجيش عند الصباح على استعداد للمسير وقال لهم

ــ لنمش على سوريا فنمتلك قوة واقتداراً حلب الشهباء التي يحكمها اخشيد مصر ، فنجعلها عاصمتنا ونجعلها جميلة حتى يتحدث بها الركبان ،

ومشى الفرسان للصحراء والامير في مقدمتهم بعباءته البيضاء وعقاله الابيض ذي الطرات الذهبيه كأنه نجمة تتألق تقود المحاربين الى مقدرات جديدة وسعيدة

وكان راكباً حصاناً مطهما دقيق الخاصرة وعصبي الساق وكانت كل خطوة من هذا الجواد يطأها نحو الصحراء قد اصبحت ملك الامير

وقد تبعته جماهير لا عدد لها اختفت في غيوم كثيفة من الرمال لا يرى منها من وقت لآخر غير بريق اسلحتها الفضية

مشوا ليالياً واياماً دون تعب ولا تذمر ، لا يستريحون على مجاري المياه وينابيع الواحات غير القليل ، ويشرق عليهم كل صباح وهم بين الرمال يكابدون حر الهوجاء وتتقطر من اجسامهم نقاط العرق كأنها من الماء الساخن ، وقد ادمت قلوبهم حرارة الشمس واحرقت اكبادهم عطشاً

ولكن الامل كان يدفع بالاحياء الى الامام ويطير بهم على اجنحته الوردية فيسيرون دوماً الى نحو الافق البعيد

ووصلوا اخيراً الى سفح الجبل حيث الرياض والمياه ، ومن ثم بعد ان ارتووا واستراحوا وتسلقوا القمم العالية الى غابات الصنوبر السوداء والسنديان الدائم الاخضرار حيث كانت تجري جداول المياه الفضية العذبة وغسلوا قلوبهم المحترقة بسلسبيلها اللجيني ، واستمعوا خريرها الشعري فامتلأت احشائهم برودة وحياة سمح لهم الامير بالراحة فافترشوا العشب وناموا ملء عيونهم في انتظار يوم البطولة القريب

وبعد ذلك بيومين نزلوا السفح المعاكس للجبل حيث كانت تتراءى لهم في الافق البعيد مدينة مزدهرة زاد الطمع في امتلاكها من همتهم وقد بانت لهم مآذنها العالية البيضاء وباسوارها الضخمة كانها « شرشف » كبير من الدنتلا المزركشة ، وما هي الا ساعات حتى وطأت اقدامهم رياض سوريا الجميلة المخملية

ولما عرف الاهلون بقدوم هذه القبائل المخيفة ارتاعوا في منازلهم واخذ الاخشيد عامل ملك مصر بالاستعداد للدفاع عن حلب الشهباء التي امتلأت من اهل القرى الذين هربوا امام الامير سيف ورجاله فكنت ترى جماهير عديدة منهم تصل الى ابواب المدينة وتقع صرعى من الخوف والتعب فيأمر الاخشيد ذو القلب الحجري بحرق الجثث فكنت ترى عند المساء محرقة من

البشر لا شبيه لها في التاريخ يتصاعد دخانها الاسود مغطياً السماء وكاسفاً النجوم ، فترى الامهات من اعالي الاسوار اطفالهن يحترقون كأنهم تقدمة للخالق

انما المحرر الاعظم الامير الجميل كان يتقدم بسرعة ، وكانت جيوشه قد ازدادت ازدياداً عظيماً مما انضم اليها من القبائل والاهلين الذين سئموا حكم الاخشيد الظالم وقد افتتنوا بجمال الامير الفتى وبطولة رجاله الذين قطعوا الصحراء الجافة بكل صبر وشجاعة

وهكذا وصل الامير سيف على رأس رجاله على ابواب حلب ، فنزلوا في الارض الخضراء الضاحكة الملأى من العصافير المغردة ، والتي يسير في وسطها نهر قويق العذب بين السنادس والخمائل .

وتراءت للامير المدينة بسطوحها المرمرية وقصورها الشاهقة وجوامعها المناطحة السماء المحيطة بقلعتها الضخمة الحمراء التي تشبه تاجاً من الارجوان لهذه المدينة الشهباء

وامر الامير وهو سكران من الفرح بدق الطبول فخفق قلب الاخشيد في صدره روعة وخوفاً

ومضى الليل والعرب نيام ينتظرون ساعة الطعان ، ولكن الامير لم ينم وظل ساهراً في خيمته الارجوانية يدبر الخطط لامتلاك المدينة ، ومن حوله قواده يبدون اليه الاراء الصائبة

لامتلاك المدينة ، ومن حوله قواده يسدون اليه الاراء الصائبة ومنهم من قال بوجوب مهاجمة المدينة ليلاً ، ولكن الامير لم يكن من هذا الرأي وقد قال

ـ الافضل ان نتعرف الى المكان والا وقعنا في احد الاشراك ، لنهاجم المدينة في النهار ولنقاتلها في وجه الشمس العطشى لمرأى الدماء ؛ ان الاخشيد ورجاله يرتجفون وراء الاسوار من الخوف ، وغداً عند مطلع النهار نحيط المدينة من جميع جهاتها ، وبعد ذلك نجتمع باكثريتنا المطلقة وبسرعة زائدة امام باب الغرب حيث عرفت ان الحامية قليلة منحطة وندخل المدينة على ظهور جيادنا كالصواعق فنملأ شوارع حلب رعباً

وعند الصباح ارسل الامير المنادين ينادون تحت الاسوار هاتفين للاهلين بالامان والحب ، مؤكدين لهم الامانة واحترام منازلهم ونسائهم وان ابا الحسن ما جاء اليهم الا ليحررهم من استعباد الاخشيد ، فمن اراد منهم الانضمام الى العرب فعلى الرحب والسعة وسيعرف الامير كيف يقدر قدر خدماتهم وخضوعهم .

ولما سمع الاهلون هتاف المنادين اطمئنوا على انفسهم وارتاحوا لوعودهم وكثيرون منهم اجتازوا الاسوار وجاؤا للامير يعرضون عليه سيوفهم ورماحهم

وعرف ابوا الحسن منهم مواطن الضعف في عدوه

وحدث ما حدث، وتحققت خطة الامير كما وضعها اثناء الليل في خيمته الارجوانية فتسلق رجاله الاسوار وتجمعوا على باب الغرب فحطموه ودخلوا المدينة على ظهور جيادهم وهتافهم الحربي يملأ الفضاء ويلقي الذعر، فهرب الاخشيد ورجاله ولم يبق منهم غير القليل من الذين التجأوا الى القلعة الحمراء فارسل الامير من يؤمنهم على حياتهم اذا استسلموا دون دفاع، فرفضوا ذلك عن كبر وعزة نفس

فعزم الامير على الاقتصاص منهم بالقوة وتركهم اياماً ضمن القلعة دون ان يهاجمهم ولكنهم وجدوا اخيراً ان لا مندوحة من الخروج قوة واقتداراً فتلقاهم الفرسان بالرماح والسيوف حتى افنوهم عن بكرة ابيهم.

وقد اعجب الامير ببسالتهم وامر بدفنهم بكل حفاوة وشرف.

وقام ابو الحسن بوعده فاحترم المنازل والنساء ولم ينهب رجاله غير قصور الاخشيد ودعاته

وكان بعضهم قد سطا على البيوت الآمنة فجازاهم الامير دون رحمة ولا شفقة، وقد قال لرجاله :

ـ اريد ان اكون السيد المطاع، فانا لم آت الى هنا كفاتح ظالم بل كامير كريم. لقد وعدتكم بمملكة جميلة، وها اننا قد امتلكنا اليوم عاصمتها، ولا تزال امامنا مدن ودساكر

اكافيء الشجعان ، واكره الظلم

وعندئذ اقسم ابناء الصحراء رجال الامير الابطال قائلين :

ـ نقسم بك وبالله ورسوله اننا نتبعك الى اطراف العالم وليحفظك الله ياأميرنا النبيل الجميل

٣

مررت مروراً فقط فاذا بالفرسان عندمرآي يقعون صرعى على ارض الصحراء المحرقة (من كتاب الف ليلة وليلة)

ولكن كافور الاخشيد لم ينم على الضيم ، بل سعى بجمع جيوش جديدة لاسترجاع حلب التي طرده الامير منها

وظهرت فرقه ذات صباح حول المدينة وحاصرتها ،وتغلبت مرتين على الا مير ورجاله فطردتهم منها ولـكن هؤلاء كانوا يعيدون الكرة ويرجعون فيدخلون المدينة منتصرين

ولم تقف مطامع سيف بن حمدان عند هـذا الحد ، فانه تقدم رويداً الى داخلية الواحات فامتلك مـدن سوريا المنيعة كحمص والشام وانطاكية وسيس وعينتاب وغيرها

وعندما كان فرسان ابي الحسن يظهرون في مكان لم يكن الاهلون يجسرون على الدفاع ،لانهم يعرفونهم قساة على اعدائهم كما هم كرماء على اصدقائهم ، فيفضلون الاستسلام لهم

وهكذا بقليل من الزمن اصبح الامير سيد البلاد باجمعها
وامتلك كيليكية واخيراً اتسعت ممتلكاته حتى ضفاف الفرات
ودفعت له القوافل التي تمر في اراضيه الجزية ، فكانت
الثروات تزداد يوماً عن آخر في قصور حلب الشهباء ومن
جميع اجناسها من جواهر واطالس حرائر واقمشة شامية
فهي كينابيع لا نهاية لها من الخيرات والمجوهرات
والمصطنعات الفنية

وابتنى الامير بواسطة الاسرى العديدين على ضفاف نهر قويق
قصراً عظيما دعاه بقصر الحلبة فجاء باحذق المهندسين وابرع
البنائين وامهر المصورين ، واكثر الفارشين والنجارين
والمزينين تصوراً وفناً ، يعتنون ببناء وفرش هذا القصر واغدق
عليهم النعم ودعاهم لى حفلاته وولائمه وكان يأمر فرسانه
بتقديم التحية لهم عند مرورهم ويسير فرقاً من الجند امامهم
تضرب الطبول ، وامر بان يحترمهم الناس كاحترامهم لاشد
الفرسان شجاعة لانهم وهم من رجال الفنون الجميلة لا يقلون
مقاماً عن ابطال الحروب وقواد الجيوش

وعندما فتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلك
ابهاراً للاعين ، فالابواب كانت من [البرونز] النحاسي
زة ، عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على
قو ن الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وبعد ذلك تظهر لك

تضرب الطبول ، وامر بان يحترمهم الناس كاحترامهم لاشد الفرسان شجاعة لانهم وهم من رجال الفنون الجميلة لا يقلون مقاماً عن ابطال الحروب وقواد الجيوش

وعندما فتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلك ابهار للاعين ، فالابواب كانت من [البرونز] النحاسي نقشت عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وبعد ذلك تظهر لك قاعات متتابعة ملأى بالاعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة ، وجعل المصورون رسوم الزهور في اواسط القبب العالية ، حيث حفروا بين جهة واخرى آيات من القرآن الشريف باحرف كوفية جميلة وابيات لاكبر رجال الشعر باحرف فارسية فتانة

وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها الوف من النوافذ الزجاجية الملونة وفي وسط كل عمود خرجت اوان ملأى من النباتات النادرة ، وفي الوسط افريز عظيم من الخشب الابنوس الموشى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الامير ورجاله الاخصاء وحفر عليه رسم الامير منتصراً على الصحراء

وفي البحيرات التي اغتسلت فيها الطيور المطهرة كانت المياه المجلدة تبرد هو جاء الصيف ، وفي كل مكان غطت

السجادات العظيمة الارجوان والرخام في الارض وسترت ستائر عظيمة من الارجوان المزركش الابواب ، وقامت موائد من العاج في وسط القاعات ومن حولها القاعات ومن حولها مقاعدمن الدمقس الغالي

وفي كل زاوية قامت محرقة عالية للبخور والطيب فكان دخانها يعطر الهواء

وجلست في داخل الجدران وراء حاجز شفاف جوقات الموسيقيين تعزف بالناي والعود والقيثارة فيسمع اهل القصر اجمل الموسيقات والاغاني ، وتدخل على انغامها الى القاعات من ابواب سرية اسراب مـن الحوريات العاريات الفائقات الجمال فيرقصن رقصات تجلب اللعاب الى الفم وترجع الشيخ الى صباه

وقد جعل الحرم فسيحاً ومتسعاً لسكنى ثلاثمائة امرأة

وان الحمام فقد كان آية في الفن والذوق وكانت المياه تتدفق فيه من فم اثنتي عشره سمكة من الذهب الابريز

وجعلت الاسطبلات ذات المعالف الرخامية لالف جواد وجواد

وقد احاطت بالقصر حدائق غناء ورياض زاهرة نبت فيها الياسمين والزنبق والورود والنرجس والوتيس!!

وسارت في مماشيها الاطيار الداجنة النادرة المثال التي جاء

كان العلماء والشعراء يتلقون العلم ، وانشأ المارستانات للمرضى يديرها كبار الاطباء

وكان في وسط هذه الفخفخة ، وباثناء الاعياد الراقصة والحفلات الساهرة ، لا ينسى وهو يستريح من غزواته الظافرة خدمه الامناء فجميع الذين ماشوه منذ الساعة الاولى كانوا بالقرب منه يحملون اكبر الالقاب ويتسلمون اعظم الوظائف

وكم كان جميلاً وعظيماً ومحبوباً بين هذه الحاشية المنتقاة كندجا الرفيق السابق ، والامير الطليق اليوم قائده المفضل ، وكالصياد وزيره ، وابي تغلب ابن عمه ، وكرغويه امير حلب وابي القاسم ياوره وحاسم قاضي حلب ، وحسين ومبارك حاملي سيفه ، وبصره السكوت حامل لوائه ، وقواد كتائبه كقمر وفيروز وعبيد وجان شاه وصواب وجعفر وابي بن طاب وابن ايوب وغيرهم ممن اشتهروا بين العرب بالشجاعة والبأس

وليس في العالمين حرم جمع آيات الجمال وحوريات الجنان ممن اتصفن بالملاحة الفتانة ، والقدود الرشيقة والاقدام الدقيقة والمدورات السابية من صبيحة لدليله لزينب لابريزه لزاهية لصليحة وغيرهن اللواتي كن طاقة من البراعيم الحية لازهار ساحرة فاتنة مسكرة

ولم يكن في العالم ندوة كندوة علمائه وسفرائه ممن ملكوا ناصية الادب كما تمتلك الجميلة قلب الشاعر وعلى قمة

هؤلاء جلس المتنبي اشهر الشعراء الذين تعاقبوا على الاعراب منذ الجاهلية حتى اليوم . ومن بعده الزاهي وابو بكر وعبد العزيز وعثمان سعيد وابن لبانة الفيلسوف الكبير ، وابن خلويه الفارسي واضع علم البيان ، وابو فرج النقاد المكنى بالببغاء والفارابي الفيلسوف وغيرهم وغيرهم من امراء الكلام الذين ازدهى عصرهم بادبهم وفاخر بهم اميرهم ملوك الارض وكانوا ينشدونه قصائد خالدة تشبه كل واحدة منها الياذة بكاملها ، جاءت فيها وقائع غرامه وحوادث هيامه ومعارك غزواته وابهة جلاله

والجميع من عساكر وقواد وحكام وشعراء وعلماء وفلاسفة يعيشون في بحبوحة من العيش ، وقد انعم عليهم الامير بالعطايا والهدايا فكان معهم اكرم من حاتم

وكانت سمعة الامير ابي الحسن تزداد يوماً عن آخر ، وقد ذاع صيت اعماله في الخافقين ، ولم يكن احد يجسر على مناوأته والطمع ببلاده ، وخافه الخليفة نفسه وهو عارف ان ابا الحسن درع متين لمملكتهِ ، لذلك كنت تراه يراعي خاطره ويعامله معاملة الند للند

ويوماً وقد جلس الامير على عرشه في قصر الحلبة ، والغانيات عاريات يرقصن امامه والمغنون ينشدون اطايب الاناشيد ، والشعراء يلقون ابلغ القصائد ، دخل عليه قائده

وكانت سمعة الامير ابي الحسن تزداد يوماً عن آخر ، وقد ذاع صيت اعماله في الخافقين ، ولم يكن احد يجسر على مناوأته والطمع ببلاده ، وخافه الخليفة نفسه وهو عارف ان ابا الحسن درع متين لمملكتهِ ، لذلك كنت تراه يراعى خاطره ويعامله معاملة الند للند

ويوماً وقد جلس الامير على عرشه في قصر الحلبة ، والغانيات عاريات يرقصن امامه والمغنون ينشدون اطايب الاناشيد ، والشعراء يلقون ابلغ القصائد ، دخل عليه قائده عبيد ، فقطب ابو الحسن حاجبيه واشار لعبيد بالانسحاب لكي لايزعجه وهو في انسه ، ولكن عبيد لم يطع امر مولاه وتقدم منه واسر اليه بقوله :

« يا اميري ان في بابك رجلاً وراءه حاشية عديدة وهو رسول امير المؤمنين يحمل اليك سلامه »

فاجاب الامير بعد اكتراث ، ضع مائة عبد في خدمته يأخذونه الى الحمام كي يستريح من تعبه ، وبعد ذلك ادخله علي

فاجاب عبيد بالسمع والطاعة واخذ الامير يستعد لاستقبال ضيفه ، فامر بفرش اجمل سجاجيد بخارى ورش العطر عليها وامر باستحضار اطيب الفاكهة والذ المربيات واعتقل سيفه المرصع بالجواهر والبس عمامته الموشاة بالذهب حيث كانت الماسه كالجوزة تشع في وسطها ورتدى طيلسانه الارجواني